الفصل الثامن

العقيدة تكرم الإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

رفع منزلته

اختلفت المدارس الفلسفية ، والمذاهب الفكرية فى النظرة إلى الإنسان وتقييمه ، فتنوع تصورها له ، وتعدد مفهومها لعناصر تكوينه :

فمن قائل : إنه كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا تعمل بنظام معين ، وتحكم العلاقات بينها روابط طبيعية ، واتصالات فسيولوجية تكونت على هيئة خاصة ، يحدث فى ظلها التأثير والتأثر بين العناصر المختلفة ، دون أن يكون هناك تصادم ، أو تعارض بين وظائفها المختلفة . بل إن أعمالها المتنوعة يغذى بعضها بعضاً فيخرج من التداخل والتلاحم ، والامتزاج والاختلاط بين وظائفها ، ما يبدو أمامنا على هيئة إنسان ، حتى وظيفة العقل والتفكير فيه ، ما هى إلا مادة يفرزها المخ ، كما تفرز أعضاء أخرى فى جسم الإنسان مواد أخرى ، لها عملها المعين فى تركيب جسم الإنسان ، فيؤدى وظائفه طبقاً لهذه الإفرازات مجتمعة .

وقد ذهب بعض العلماء إلى بيان نوعية العناصر التى يتكون منها الإنسان ومقدارها ، فقال : " إذا جئنا بإنسان زنته مائة وأربعون رطلاً (١٤٠) وحللنا تكوينه ، وجدنا بدنه يحتوى على المواد الآتية :

قدر من الدهن يكفى لصنع سبع قطع من الصابون ، وقدر من الكربون يكفى لصنع سبعة أقلام رصاص ، وقدر من الفسفور يكفى لصنع مائة وعشرين عود ثقاب ، وقدر من ملح المغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات ، وقدر من الحديد يمكن به عمل مسمار متوسط الحجم ، وقدر من الجير يكفى لتبييض بيت للدجاج ، وقدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره ، وقدر من الماء يملأ برميلاً سعته عشرة جالونات .

وهذه المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى ستين قرشاً مصرياً . فهذه قيمة الإنسان فى نظر هذا الفريق من الماديين : مجموعة من العناصر المادية ، رُكِّبت بطريق معينة ، لتؤدى وظائف مختلفة ، إلا أنها متناسقة ومنسجمة ، فإذا اختل هذا التناسق ، واضطربت

عوامل الانسجام ، تفككت هذه المكونات وتلاشت ، فأصبحت شيئاً آخر ، وهذا ما يعبر عنه بالموت .

أليس فى هذا التصور ما يدعو الإنسان إلى احتقار نفسه ، والتهوين من شأنه ، والنظر إلى وجوده على أنه شيء تافه ، لا يستحق الاهتمام ، ولا يستدعى التفكير فيه ، فهو لا يختلف فى تكوينه عن سَن ما يحيط به :

تأثر وتأثير بين المواد المختلفة على شكل تفاعلات كيميائية ، حتى فى أخص الخصائص التى تميز بها عن غيره ، ألا وهى قوة الإدراك والتفكير؟؟؟

ودورة ميكانيكية تتوقف عندما يحدث عطب فى هذه التفاعلات الكميائية ، أو اضطراب فى عملية التأثير بين وظائفها المختلفة ؟؟

إن مما لاشك فيه أن هذه النظرة إلى لإنسان تجعله يشعر بأنه لاشيء يذكر بالنسبة للكائنات الأخرى ، فما دام التركيب واحداً والعناصر متماثلة ، وليس هناك ما يميزه عن غيره ، فهو كالحشرة ، أو هو كالحيوان فى مادته وتركيبه . وقد عبر أحد الماديين عن عدم الفرق بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى ، فقال : " هل نحن فكرة أكثر من كون الحشرات فكرة ! نحن لا نساوى أكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات . ونحن لا نريد إلا أن نحقق أنفسنا ، وكذلك أيضاً الحشرات . والفرق بيننا وبين الحشرات هو فرق التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان ، لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان . **ماذا نفقد ، أو يفقد الكون ، أو تفقد الشمس والقمر بفقدنا أنفسنا ؟**

يجرد هذا التصور الإنسان من أخص خصائصه ، ويسلبه ما ميزه الله وفضله به على سائر مخلوقاته ، ألا وهى النفخة الإلهية التى أودعها الله هذا الجسم ، فحُوِّل إلى كائن آخر يمتاز فى خصائصه ، وميوله ونزعاته ، وتفكيره عن كل ماعداه من مخلوقات .

تلك النفخة التى ارتفعت به عن الأرض ، وحلقت به فى السماء ، مترفعة به على سائر المخلوقات التى خلقها الله على هذه الأرض ، فهو نوع آخر مميز ومفضل عليها ، ولهذا فإن له السيطرة عليها ، وهى مسخرة له ، ينتفع بها فى سائر شئون حياته . وهذا التصور يشعر الإنسان بالعزة والكرامة ، ويضفى عليه هالة من الإجلال والرفعة ، مما يجعله يحس بفاعليته

فيمن حوله وما حوله ، فينطلق لتعمير الكون ليحقق بذلك قول الله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴿٦١﴾ ﴾ [هود : ٦١] ، وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، فشعور الإنسان بأنه مستخلف يختلف كثيراً عن شعوره بأنه كائن مثل حشرات الأرض وهوامها .

ولم تكن نظرة الماديين إلى الإنسان واحدة ، فبينهم اختلاف فى تصور العناصر التى يتكون منها الإنسان ، وفى تفسير وجوده ، فبينما يرى البعض بأنه كتلة من اللحم والدم والعظام .... و.....و.....إلخ كما بيناه سابقاً ، يذهب آخرون بأن وجوده على هذه الهيئة إنما هو حلقة فى سلسلة تطور الكائنات الحية ، فالإنسان عندهم أخو الحشرات ، غير أن تطوره خطا خطوات أسرع ، فتحول إلى هذه الصورة ، ومن أشهر ما قيل فى هذا المجال : رأى " داروين " الذى يتلخص فى أن الإنسان ككائن حى مرَّ بمراحل فى سلم تطوره ، وآخر مرحلة انتقل منها إلى هيئته الحالية هى مرحلة : القرد ، ولذا شاع بين الناس أن الإنسان أصله قرد .

لا تختلف هذه النظرة إلى الإنسان عن سابقتها ، فكلاهما قد هبط به إلى أسفل ، وجرده مما يتميز به عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو وإن اعترف بتطوره ، إلا أن مفهوم هذا التطور عنده يتعلق بالعناصر المادية ، فلا يتطرق إلى ماوراء المادة من روح ، ونفس ، وسمو ، وشفافية . بل لا يخرج عندهم عن كونه حيواناً متطوراً ، ترقى من طور إلى آخر حتى بلغ ما هو عليه الآن . فالحيوانية أصله ، والمادية سدته ، فلم يتكون إلا من العناصر الهابطة ، غير أنها ارتقت بعض الشيء عن مثيلاتها .

ألا يعتبر هذا من أكثر التصورات سوءاً على نفس الإنسان ؟ هل يوجد ماهو أسوأ من هذه النظرة على حياته ؟

إذ يرى نفسه مخلوقاً هابطاً ، لا يختلف عن الحيوان فى شيء ، فلا يتميز عنه بميزة ترفع قدره ، وتعلى مكانته بين المخلوقات ، فهو يشعر فى ظل هذه النظرية بالانحدار والتلوث

والإسفاف . وبناء عليه فهو لا يستنكف من التلوث لأنه أصله ، ولا يخزى من الهبوط فى وديان القذارة والأوحال ، فهو منها ، وليس فيه ما يرفعه عنها ، أو يدفعه إلى التخلص منها ، فالحياة النظيفة غريبة عنه ، وليس بينه وبين المعانى السامية أدنى اتصال ، فهو مجرد عن كل ما يدفعه إلى الدنو منها ، أو يربى فيه خصائص الركون إليها والبحث عنها ، والتحلى بها ، فهو مادة خالصة ، ليس فيها ما يهذب هذه المادة ويخلصها من الشوائب ، ويرتفع بها إلى عالم المعانى ، ويسبح بها فى آفاق الحق الأعلى ، فيستعلى على الشهوات ، ويبتعد عن المطامع المادية تقرباً إليه ومبتغياً رضاه .

فنظرة الماديين هى احتقار له ، وتهوين من شأنه ، وهبوط به إلى درجات الحيوانية ، أما الإسلام فقد نظر إلى الإنسان على أنه مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته . خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بأن يسجدوا له تكريماً وإشعاراً له بتميزه عن سائر خلقه ، وفى ذلك ما يدفعه إلى ممارسة كل ما من شأنه أن يرتفع به عن الجانب المادى ، ويحلق به فى سماء المعانى بعيداً عن المادة وأقذارها ، ومتجنباً كل ما من شأنه أن يهبط به إلى أسفل ، حيث التلوث والإسفاف والانحدار إلى مدارك لا تليق به كمخلوق فضله الله على سائر المخلوقات بأن نفخ فيه من روحه ، وكرَّمه بسجود الملائكة له ، وميزه بالعلم والإرادة ، وجعله خليفته فى الأرض ، ومحور النشاط الإرادى فى الكون ، وسخر له ما فى السموات والأرض ، فكل ما فى الكون مسخر له ، ولم يجعله مسخراً لشيء أبداً ، وإنما طلب منه العبادة له وحده فقط .

إن مكانة الإنسان المادية بين المخلوقات لا تكاد تذكر ، فهو من حيث حجمه وتكوينه المادى شيء ضئيل جداً بالنسبة للكون ، وكذلك بالنسبة لمخلوقات أخرى كثيرة تعيش على سطح هذه الأرض ، ولكنه من حيث ما أودع الله فيه من روح وقوة وإدراك ، وإرادة وبصيرة أصبح شيئاً كبيراً ، إذ اكتسب بهذه الصفات غير المادية مكانة سامية ، فشعر بالعلو والسمو على غيره من الكائنات ، ودفعه هذا الشعور إلى بذل كل ما لديه من طاقات ليظل مرتفعاً ، محلقاً فى سماء الفضيلة والكرامة ، فمن يغفل عن هذا الجانب يهوى إلى قاع المادة ، حيث الأوحال والأقذار ، يقول تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا

فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] ، آثر الجانب المادى على الجانب المعنوى ، فهوى إلى الأرض ببعده عن رسالة الله التى ترفعه وتسمو به .

تفضيله

أكد الله فى كثير من آيات القرآن الكريم على أنه كرم الإنسان وفضله على سائر المخلوقات كلها ، منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٠] . بل إن تصوير القرآن الكريم لإخبار الله الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة ، وإظهار تخوفهم من أن هذا المخلوق سيفسد فى الأرض ، ثم بيان الله لهم بالدليل الواضح على أنه صاحب عقل ودراية وإدراك لما حوله ، لبيان واضح للإنسان عن مدى تفوقه على مخلوقات الله ، وفضله عليهم ، إذ أن العقل المدرك فيه قد رفعه من حطيط المادية إلى سماء الإدراك والفهم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل

لَكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة : ٣٠ – ٣٣]

كذلك كان لأمر الملائكة بالسجود له – وهم عباد الله المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، وهم الذين يسبحون الله آناء الليل وأطراف النهار ، فلا يوجد فى مخلوقات الله من هم أقرب إليه منهم – إعلان على أن الإنسان قد احتل مكانة سامية لدى رب العالمين ﷻ . وأى مكانة تضاهى الاحتفاء به فى العوالم الروحية .

وجاء هذا الاحتفاء فى صورة أمر الله الملائكة بأن تسجد تحية له ، فهى تحية إجلال وإكبار ممن جعلهم الله أقرب خلقه إليه ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص : ٧١ – ٧٤]

لم يفهم إبليس معنى السجود للإنسان ، ولم يدرك سببه ، ولذلك علق على سجوده على مظهر مادى بحت ، عندما سأله الله عن عدم السجود ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص : ٧٥ – ٧٦]

عصا إبليس أمر ربه ، فلم يؤد التحية لهذا المخلوق الجديد ، لأن الحقد والحسد من تكريم الله للإنسان ، ورفعه فوق درجة الملائكة ، دفعاه إلى الاستكبار فأبى الخضوع لأمر الله فكان من الكافرين .

فماذا كانت عاقبة هذا التكبر ؟

وماذا كان مصير من لم يعترف بفضل الإنسان ، فلم يقم بتبجيله واحترامه ؟

ذكر القرآن الكريم أنه عوقب عقاباً أليماً ، إذ طرده الله من رحمته ولعنه ، فصار طريداً فى كل مكان ، وملعوناً على كل لسان ، عبر الدهور والأزمان ، يقول تعالى : ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص : ٧٧ - ٧٨] ، ومن يلعنه الله فلن يجد له نصيراً ، ومن يطرده الله من رحمته ، فلن يحس بلحظة سعادة ، بل تظل حياته شقاء وبؤساً ، وألماً يعصر روحه إلى أن تقوم الساعة ، ويومها يلقى فى جهنم وبئس المصير .

وأى ذنب فعله إبليس لينال كل هذا العذاب فى الدنيا والآخرة ؟

ليس إلا رفضه تكريم الإنسان كما أمره ربه ، وهذا يبين فضل الإنسان عند رب الكون كله ، ودرجته عند مبدع الأفلاك وما عليها ، وخالق السموات والأرض وما بينهما .

فإذا قارن المرء بين نظرية الماديين إلى الإنسان ، حيث يعتبرونه مجرد حيوان يأكل ويشرب ، ويشبع رغباته وغرائزه ، دون أدنى شعور بما يدفعه إلى التفوق والارتقاء إلى أعلى ، وبين تكريم الله له ، فإنه يشعر بمدى الإهانة والاحتقار من جانب الماديين ، والذل والهوان لو دار فى فلكهم ، واتبع أهواءهم ، وانغمس فى شهواتهم ، بينما الإسلام يغرس فيه الثقة بالنفس ، والشعور بالذات ، بل إنه يتيه فى رحاب الإيمان فخراً وعزة ، لأنه ينتسب إلى الله ، ويرتبط به ، لأنه خلقه بيديه ، ويقترب منه ، لأنه فضله وكرمه على سائر خلقه . وليس هذا الإحساس بهين فى عالم الإنسان فهو يؤثر على شعوره فيدفعه إلى الترفع عن الدنايا ، لأنها لا تليق بمركزه ، وبذلك يتقوم سلوكه ، فيلتزم طريق الخير التى تعود عليه بالسعادة فى الدنيا ، والفلاح فى الآخرة .

القضاء على الطبقية

يسيطر حب الظهور والاستعلاء على مشاعر الإنسان وأحاسيسه ، فيدفعه إلى سلوك كل الطرق لتأكيد تميزه على غيره من أبنا جنسه ، ويعمق فى نفسه الاعتقاد بتفاوت

الطبقات بين البشر ، فيقوده ذلك إلى تصنيف الناس ، وتقييمهم حسب ما يعتقد أنه يرفعهم درجة ، أو يتزلهم درجتين ، أو يقربهم من علية القوم ، أو يصنفهم مع طبقات الدرجة السفلى . وقد درجت المجتمعات البشرية على اعتبار الظواهر المادية أساساً للتصنيف ، فمن يملك مالاً أكثر من غيره ، يحتل درجة أعلى ، ومن يتمتع بجاه أو سلطان يحتل مكان الصدارة بين الناس ، ولذا أصبح المقربون إلى الحكام والسلاطين هم أولئك الذين يملكون الثروات ، أو يتمتعون بجاه العصبية والسلطان ، أو يكون لديهم من القوة ما يمكنهم من التقرب إلى الحاكم ، أو ما يحمل الحاكم على جذبهم نحوه حتى يؤمن ملكه ، ويقوى سلطانه . أما أولئك الفقراء فليس لهم مكان بين هذه الطبقات ، حتى وإن كانوا أحسن خلقاً وأعز نفساً ، وأحرص على خدمة الأمة . فتقييم الناس عند هؤلاء القوم لا يعترف بميزان التقوى والصلاح ، بل بكثرة الدراهم والدنانير ، ومنعة القوة والسلطان .

غير أن رسالات الله التى أنزلها على رسله وضحت للمجتمعات البشرية أن هذا الميزان لا وجود له عند الله ، بل يقرب الإنسان إليه على أساس الخلق الحسن ، والسلوك السليم ، والتقوى والصلاح ، وصفاء النفس وطهارة القلب ، والعمل الصالح ، والإسهام الإيجابى فى بناء المجتمع ، والبذل والعطاء لحماية خلق الله من شرور المفسدين وطغيان المتكبرين . ومع هذا فقد نسى الإنسان ذلك ، فاتبع هوى نفسه ، ووساوس شيطانه ، فمال إلى من أداروا ظهورهم لهذا الخط الواضح فى تقييم الناس وتكريمهم ، حتى رجال الدين ، الذين يحتم عليهم وضعهم فى المجتمع أن يتبعوا خطوات الرحمن ، ولا يتزلقوا إلى مزالق الشيطان ، انحرفوا عن الطريق المستقيم فوضعوا أنفسهم فى مكان أقرب إلى الله من غيرهم ، بل جعلوا أنفسهم وسطاء بين الله وبين البشر ، فبدوا بهذا السلوك ، وكأن الله قربهم إليه كما يقرب السلطان أولياءه وأقرانه ، وذوى النفوذ من شعبه ، وظلوا يلعبون دور الوسيط ، ويمارسون عمل السماسرة بين الله وبين من أوهموهم أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الله بأنفسهم ، فبينهم وبينه حجاب ، وعن طريقهم هم — أى رجال الدين — تصل رحمة الله إلى عباده ... حتى جاء الإسلام فأعلن للناس أن كل إنسان قريب من الله ، يستطيع أن يدعوه بدون وسيط ، وأن يسأله بنفسه ، فليس بينه وبين عباده حجاب ، ولم يفضل أحداً فيقربه إليه ،

ويمنع الفضل عن أحد فيغلق بابه دونه ، لأن الله فضل الإنسان من حيث هو إنسان ، كرمه لذاته ، وميزه على سائر خلقه لما أودع فيه من قوة تدرك خالقه ، فإن أراد التوجه إليه فلا حجاب يمنعه ، ولا باب يرده ، مهما كانت درجته فى سلم التقييم الذى تعارف عليه البشر ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٦]

كما بين القرآن الكريم أن الله موجود حيث يتوجه الإنسان إليه ، فلا يحول بينهما التميز الطبقى الدنيوى ، وليس هناك من الحواجز ما يمنعه من الوصول إليه كتلك التى تحول بين اتصال الطبقات فى المجتمعات البشرية ، يقوا الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [البقرة : ١١٥] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ق : ١٦] ويقول : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة : ٧] . وجاء تأكيد هذا المعنى فى كثير من أحاديث رسول الله ﷺ عن ربه ، نذكر منها ما رواه البخارى عن رسول الله أن رب العزة يقول : - **أنا عند حسن ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، إذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة** - .

هذه هى مكانة الإنسان عند ربه ، بينها لعباده ، ليقلعوا عن نعرة الجاهلية ، فلا يكون تفضيل الناس بينهم على أساس مادى بحت ، بل يقدم فيهم من كان على تقوى وصلاح ، ومن عرف بين قومه بالسلوك الحسن والخلق الطيب ، والعمل الصالح لربه ولنفسه ، ولأهله

وقومه وعشيرته ، ولأمته الإسلامية فى مجالى الدنيا والآخرة ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأنعام : ١٣٢]

تحرير الإرادة

يرتفع قدر الكائن الحى بمقدار ما يملك من حرية فى تصرفاته وسلوكه ، فكلما كانت حريته أوسع كان قدره أكبر ، فإذا نظرنا إلى الكائنات الحية بهذا المنظار ، لوجدنا أن أرقاها هو الإنسان ، لأنه الكائن الوحيد الذى أعطاه الله حرية فى سلوكه أكثر اتساعاً من أى مخلوق آخر على وجه الأرض ، إذ أن ماعداه من الكائنات لا يتمتع بمثل هذه الحرية ، فهى مابين متحرك بالدفع الذاتى ، داخل دائرة عامة تحكمه ، وتحدد حركته مع ما هو مرتبط معه من الكائنات الأخرى كـ : الأفلاك والأجرام . ومنها ما تحركه غريزته ، فهو خاضع لمتطلباتها ، يسير وفق ما تمليه عليه ، وما توجهه نحو إشباعها كـ : الحيوان والنبات . أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى يتصرف وفقاً لإرادته هو ، فليس مرتبطاً بغيره من الكائنات ، ولا يخضع خضوعاً لازماً لتوجيه متطلبات غرائز كامنة فيه ، فهو وإن كان فيه من الغرائز ما يدفعه إلى إشباعها ، إلا أن له من الحرية ما يمكنه من التصرف عكس ما تطلبه منه ، فإن دفعته غريزة الجوع — مثلاً — إلى الأكل من طعام فى متناول يده ، فإن له من الإرادة ما يجعله قادراً على الامتناع عن تناول هذا الطعام ، وإن استعرت فى داخله غريزته الجنسية ، فإن له من القوة ما يمكنه من كبتها ، وعدم تلبية ما تطلبه منه ، أو الجرى وراء ما تدفعه إليه ، وهكذا فى كل أعماله ، لا تصدر إلا عن إرادة منه وعزم على تحقيقه ، وتلك هى الحرية التى منحها الله له ، وفضله بها على سائر الكائنات الحية على سطح الأرض .

كذلك من تفضيل الله الإنسان أن جعله مركز هذا الكون المادى العريض ، فهو سيده ، يتصرف فيه كيف يشاء ، وعلى أى وجه يريد ، فله الحرية فى ممارسة طاقاته معه ، لاقيد عليه فيما يفعل ، ولاحجر عليه فيما يتناول ، وليس بينه وبين ما يريد الانتفاع به من هذا الكون باب مغلق ، ولاحجاب يحول بينه وبين ما يريد ، ولاحاجز يفصل بينه وبين الوصول

إلى أى شيء ، فالكون مسخر له ، وكأنه خلق من أجله ، ووُجِدَ له ، وفُصِّلَت ظواهر الطبيعة من : بحار وأنهار وجبال ووديان ، وريح ورياح لينتفع بها فى مجالات حياته المختلفة ، وأحوال تكوينه المتنوعة ، يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ - ٣٤] ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٠] ، ويقول : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية : ١٢ - ١٣] ، ويقول : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان : ٢٠]

وبهذا أصبح الإنسان مؤهلاً لحمل أمانة الوحى ، فحريته الواسعة المدى تمكنه من اختيار طريق الهدى وسيلة لحياته ، ومصباح الحق نوراً يهتدى به فى سلوكه ، حتى لا يتعثر فى طرقات الدنيا المظلمة . وقد شرع الله معالم تحدد له مسار الركب الإنسانى حتى لا ينحرف فيتيه فى صحراء مهلكة ، ووديان مليئة بماء آسن ، وقاذورات تلطخ ثوبه الناصع الذى خلقه الله به .

فحرية الإنسان وسيلة أعطاه الله إياها ، ليصبح مستعداً عن طواعية لحمل الأمانة الكبرى ، ألا وهو التكليف باختيار ما يصلحه ديناً ودنيا ، وهو ما عبر الله عنه ، وصوره فى أبدع صورة فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . حملها لأنه كان على استعداد لحملها ، فهو يتمتع بالحرية التى تمكنه من القيام بهذا الواجب ، ولذا فمصيره بيده ، إن شاء اختار طريق الله ، وإن شاء تخبط فى ظلمات الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [القيامة : ١٤] ، ويقول : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ويقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس : ٩ – ١٠] ، ويقول : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء : ٧]

* * *